ظِل عاليا

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

ظل عاليا
نور عزام
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغـوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2017/27136
الترقيم الدولي: 978-977-6634-07-7
الطبعة الأولى: 2018

نور عزام

ظِل عاليا

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى مــن وهبنــي الحيــاة بعــد تلاشــيها في عينــي حــدّ العــدم،
واســتقر بــين ضلوعــي وانطــوت عليــه نفــسي
إليكَ عزيزي..
أحببتُــك رغــم كرهــي لــكل شيء أحببتُــك.. وســأحبك إلى
الأبــد.

كان عزائي الوحيد أنني كنت الضحية والمظلومة دومًا . . فلا
أحتمل ذنبَ إيذاء أحدهم ما حييت ! !

(1)

(مايو 2014)

كانت المرة الأولى التي تطأ فيها قدماي أرضَ مصر بعد غربة دامت اثني عشر عامًا، أو ربما غُربتي أنا تخطت ذلك الحدّ بكثير. لا أتذكر أبدًا أنني عِشتُ على أرض ذلك الوطن عشر سنوات كاملة.. فما مضى من عُمري قد مُحِيَ رغمًا عني بكل حُلوِه ومُرِه. نظرت إلى ذلك الواقف إلى جواري وأكاد أصِل إلى كتفه بصعوبة، وحمدت الله بداخلي كثيرًا كما أحمُده في كل مرة أنظر فيها إلى «حمزة».. رَجُلي الوحيد.. الذي يلعب دور كل رجُلٍ كان من المُفترض أن يكون بحياتي يومًا ولم يَكُن. ملامحُه الجذابة وقوامه الممشوق لا يُعطيانه إلا تسعة وعشرين عامًا على الأكثر.. سنوات عُمرِه السبع وثلاثين غير مُعترَف بهم سوى في شهادة الميلاد. حدجني بنظرة جانبية فهمت مغزاها جيدًا، فأسرعت بارتداء الجاكت الصيفي الخفيف الذي كنت أضعه فوق كتفي بعشوائية. فهناك العديد من الأمور التي تحدثنا بشأنها مُنذ أن قررنا ترك «كاليفورنيا» والعودة إلى مصر، ومن ضمنها ملابسي المُتحررة التي لا تُلائم الحياة في مصر. وعندها ثُرتُ غاضبة من ذلك الادعاء الباطل، فملابسي ليست بالمُتحررة كما يزعُم.. مَسح على شعري قائلًا بحنانِه المعهود: إنَّ ما لم يكُن مُتحررًا في كاليفورنيا يُعد

مُثيرًا وفاضحًا أيضًا في مصر. خرجنا سويًّا من المطار واستقلينا أول تاكسي قابلنا متوجهين حيث منزلنا الجديد في حي الزمالك، وطيلة الطريق كان كلٌّ منا شاردًا في حلمه الذي ينوي تحقيقه على أرض بلده.

****

درستُ الإعلام ووسائل الاتصال. اخترت ذلك المجال بكامل إرادتي سعيًا وراء تحقيق حلمي بتقديم برنامج «توك شو» يُحاكي الواقع المصري. لم أرغب في تقديم ذلك البرنامج إلا على أرض بلدي التي لا أذكُرها ولا أتذكر أنني عِشت بها يومًا واحدًا، لكن بداخلي انتماءً غريبًا لها لا أعلم مصدره، لكنه يدفعني إليها ويُلحّ عليّ بتحقيق حلمي على أرضها دونًا عن غيرها. أما حمزة أو « دكتور حمزة» كما يُلقبه الآخرون عدا أنا، «طبيب أورام».. حصل على الدكتوراه من أكبر جامعات كاليفورنيا، وحلمه إنشاء مشفى خاص لعلاج الأورام بالمجان في مصر. ذلك الحلم أستطيع أن أتفهمُه وأعي أسبابه جيدًا.. أما حلمي أنا فلا شيء سوى طيف يُراودني مُنذ أمدٍ بعيد لا أستطيع تحديده بدقة لكني أشعُر بأثره العميق في نفسي ورغبتي الشديدة في تحقيقه.

****

اثنا عشر عامًا مضوا مُنذ أن قرر حمزة الفرار بي من مصر بعد الفاجعة التي أصابت كلينا.. كنت وقتها طفلة عُمري لا يتعدى العشر سنواتٍ.

****

(2)

حمزة كان الصديق المقرب لأحمد شقيقي الأكبر، صديق الطفولة والصِبا، أتمَّا مراحل التعليم الابتدائية والإعدادية والثانوية معًا ولم يفترقا سوى في الجامعة. صداقة الاثنين لم تتأثر، بل على العكس.. ازدادا قُربًا خاصة لأن حمزة كان وحيد والديه وتوفى والده مُنذ أن كان طفلًا لم يتجاوز الخامسة، فلم يكُن لديه أب ولا إخوة، وكان أحمد له بمثابة الأخ والصديق. علاقتهما القوية جعلت من الأسرتين أصدقاء، وهيام والده حمزة أصبحت من أعز صديقات والدتي، أما أنا فكُنت مُدللة بين أفراد الأسرتين وخاصة حمزة، الذي اعتبرني ابنته رغم أن فارق السن لم يكن كبيرًا للدرجة لكنه كان دومًا يشعُر بالمسؤلية تجاهي وكُنت أشعر بأنني مسئولة منه، على الرغم من وجود والدي وشقيقي حينها. استمرت الحياة على نحوٍ هادئٍ ولطيف إلى أن حلَّ علينا «عام الفقد» كما أطلقتُ عليه بيني وبين نفسي، ولم يتركنا أنا وحمزة إلا ونحن حُطامًا.. هو يُعاني آلام الفقد والوِحدة وأنا أصارع الموت.

****

(يناير 2002)

اكتشف الأطباء إصابة هيام بورمٍ خبيث في المخ.. كان في مرحلة مُتأخرة ولم يؤثر بها العلاج، وما هي إلا ثلاثة أشهر فقط حتى فارقت الحياة تاركة حمزة يتيما؛ أبًا وأمًّا.. بالرغم من مُحاولاته المُستميتة لإنقاذ حياة والدته. كان آخر أمل هو السفر إلى الخارج، وبعد أن جهز حمزة كل شيء وحجز تذاكر الطيران نفذَ أمر الله قبل موعد الطائرة بساعةٍ واحدة. ورث حمزة عن والدته ثروة طائلة كما كان قد ورث عن والده ثروة لا بأس بها أيضًا، لكن كل ذلك لم يُعوضه عن غيابهما.

****

(نوفمبر 2002)

كُنت مع أسرتي في طريقنا إلى الإسكندرية لحضور حفل زفاف أحد أصدقاء والدي، حتى أصابنا حادث مروّع على الطريق، راح ضحيته والدي ووالدتي وشقيقي.. ولم يتبقَّ سواي، كانت حالتي خطيرة ونُقِلت إلى المشفى وأنا بين الحياة والموت.

****

لم يستطع حمزة أن يتحمل كل تلك الصدمات دفعة واحدة؛ فبعد أن توفيت والدته ساءت حالته النفسية كثيرًا.. كان مُتعلقًا بها بشدة وشعر بالعجز وهو غير قادر على فعل أي شيء لإنقاذ حياتها، كان مُستعدًا لدفع كل ما يملكون من أموالٍ في سبيل إنقاذ حياتها لكن الصحة لا يُمكن أن تُشترى، مثلها مثل السعادة والحُب وأشياء كثيرة قيمتها أغلى بكثير من أن تُشترى بكومة أوراق ليس لها معنى تُسمى

«النقود». ما هوَّن عليه تلك الفاجعة هو وجود أحمد ووالدي ووالدتي إلى جواره، احتضناه وعاملاه كابنٍ ثالثٍ لهما حتى أصبح حمزة يبيت مُعظم أيامه في منزلنا لأنه غير قادر على تحمُّل المبيت في منزله ووالدته غير موجودة به. لكن كان للقدر رأي آخر وقرر حِرمان حمزة من دِفء الأسرة البديلة بعد أقل من ثمانية أشهر وفقدهم جميعًا ولم يتبقَّ له سواي؛ ففعل المستحيل لينقذ حياتي؛ فأنا آخر ما تبقى لديه. لم يكُن لوالدي أو والدتي أي أقارب، مثلما يُقال «مقطوعين من شجرة».. في لمح البصر فقدت كل عائلتي وكان حمزة هو آخر ما تبقى لدي أنا أيضًا.

****

سافرت مع حمزة إلى كاليفورنيا بمساعدة «أنكل شهاب» كما يدعوه حمزة، الطبيب النفسي الشهير وابن خالة والدته. كانت أسرة دكتور شهاب تستعد للهجرة في نفس الوقت الذي كنت أصارع فيه الموت بالمشفى. أراد حمزة أن يُسافر بي ليُتمم شفائي بالخارج لكنه تعثر في الإجراءات القانونية نظرًا لعدم وجود أي صلة قرابة بينه وبيني، وأنه أعزب دون أسرة فلا يستطيع أن يتبناني. فاضطر للجوء إلى قريب والدته.. الوحيد الذي يثق به، حتى يُساعده في حل مُشكلته وكان الحل هو تبني أسرة دكتور شهاب لي بشكلٍ قانونيّ حتى أتمكن من السفر معهم. تم كل شيء في وقتٍ قياسي واستطعت السفر تحت مسئولية ورعاية أسرة دكتور شهاب أمام القانون، لكن ما إن وصلنا إلى أرض كاليفورنيا حتى تحمل حمزة مسئوليتي كاملة ورفض أي مُساعدة أو تدخُّل. اكملت علاجي حتى شُفيت، لكن ليس تمامًا؛ فالضرر الذي

أصاب مُخي الصغير كان كبيرًا أفقدني كل ذاكرتي وأصبحت حياتي صفحة بيضاء خالية من أي معلومات أو ذكريات.

****

فتحت عينيَّ فجأه وأنا لا أعي أي شيء في الدنيا ولا أتذكر حتى اسمي، ذاكرتي أصبحت صفحة بيضاء خطَّ فيها حمزة أولى الكلمات، ثم قصَّ عليَّ تدريجيًا –بُناء على تعليمات الطبيب– كل ما حدث في حياتي من يوم مولدي وحتى يوم الحادث. وُلِدت على يد حمزة من جديد، كان لي بمثابة الأب والأخ والصديق، وكُنت له كل حياته. لم أتأثر بالشكل الطبيعي عندما علمت بما حدث لأسرتي نظرًا لكوني كنت لا أتذكرهم من الأساس! مما هوَّن عليَّ وساعدني على تقبُّل الأمور بسهولة وتقبُّل الحياة الجديدة التي أسسها لي حمزة، وعمل فيها على إسعادي وراحتي وتوفير كل سُبل الحياة الكريمة الآمنة لي. اهتم بعلاجي الجسدي والنفسي من ثمّ تعليمي، وظل إلى جواري في كل خطوة أخطوها في حياتي حتى حضر حفل تخرُّجي قبل عودتنا إلى مصر بشهرٍ واحدٍ فقط.

****

الذكرى الوحيدة التي أبتسم لها كلما جالت في خاطري من ليالي المشفى الأليمة، هو ذلك اليوم الذي دخل فيه حمزة إلى غرفتي بابتسامته التي كانت تبعث في نفسي الهدوء وفي روحي الطمأنينة. جلس إلى جواري ومَسح فوق شعري بحنانٍ، ثم أخرج من أحد جيوبه عُلبة زرقاء صغيرة ففتحها أمامي لتظهر منها سلسلة رقيقة من الذهب الأبيض حُفِر على دلايتها التي اتخذت شكل قلب حروف اسمي

بالعربية «عاليا»، ألبسني إياها وطلب مني الاحتفاظ بها، وذلك ما فعلته بالضبط؛ فلم أنتزعها من رقبتي من يومها.

***

كونت أنا وحمزة أسرة صغيرة مُوازية لأسرة دكتور شهاب المُكونَّة من زوجته آمنة، وولديه الأكبر هاشم والذي يكبُرني بخمسة أعوامٍ والأصغر سليم الذي يكبُرني بعامين فقط. كان الدكتور شهاب هو الطبيب النفسي المُعالج لي بعد أن شُفيت جسديًّا، ولم يتخلَّ هو وأفراد أسرته عني أو عن حمزة طيله الاثني عشر عامًا، كانوا الدعم والسند لنا في بلاد الغُربة حتى قررنا العودة إلى مصر. بقيَتْ أسرة دكتور شهاب في كاليفورنيا لكن العلاقات لم تنقطع بيننا وبينهم، وبقينا على تواصل مستمر.

****

(3)

مرَّت ثلاثة أشهر على حياتي الجديدة في مصر، اعتاد حمزة على الحياة الجديدة سريعًا، أما أنا فواجهت صعوبة كبيرة في التأقلُم. كُل شيء حولي مُختلفًا؛ الثقافة، التقاليد، الشوارع، التعاملات بين البشر، كل شيء يدعوني للشعور بالغُربة في وطني. حتى حمزة دون قصدٍ كان يضغط عليَّ ويُشعرني بمدي الاختلاف بين الحياة في مصر وأمريكا. كثرة توجيهاته ومُلاحظاته باتت تخنقني: لا ترتدي ذلك فإنه قصير، وهذا ضيق، أما ذاك فألوانه فاقعة ستجذب النظر إليكِ! تعامُلاتي مع الجيران والأصدقاء الجُدد دائمًا يطلب مني أن أكون مُتحفظة مع أي شخصٍ جديدٍ أتعرف عليه، لا أثق بسهولة بل لا أثق إطلاقًا، وأضع الكثير من الحدود والحواجز ولا أسمح لأحدٍ بتخطيها، أعتني بنفسي جيدًا وقائمة طويلة عريضة من التوجيهات والتحذيرات يُلقيها على مسامعي في كل مرة أُقرر فيها الخروج من المنزل بدونه، وأحيانًا بدون أي سببٍ يُذكر. يُعاملني دائمًا كطفلة صغيرة لا تجيد التصرف ويَسهُل خداعها من أي شخص، يراني ضعيفة مسالمة ويخاف عليَّ من كل شيء، حتى جعلني أشعُر بأن مصر غابة والأُناس بها وحوش ليس لهم أي وظيفة سوى إيذائي.

****